

صوتُ درويش وسوطه!

«١»

في ليلة الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ انطلق الرصاص من كل حدب وصوب في قرية «البروة» التي تقع شرق عكا على مسيرة ٩ كيلومترات منها، ويعيش بها ١٤٦٠ نسمة. لم تميز طلقات الرصاص بين صغير أو كبير، ووجد الطفل ذو السنوات السبع نفسه يعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء مشياً على الأقدام حيناً، وزحفًا على البطن حيناً، وبعد ليلة مليئة بالذعر والعطش وجد نفسه مع أسرته في بلد اسمه لبنان!

الطفل الذي سمع صوت الرصاص، وجرى في الظلام في الأحراش، لم يعد يهاب الموت الذي كان يطارده في هذه الليلة، وظل هذا المشهد محفوراً في ذاكرته، لكنه لم يجعل روح اليأس تتسرب إلى نفسه، مثلما تسربت إلى من نفوس من قبله، بل صار حاملاً لشعلة الأمل، وحب الحياة، وقد بدا ذلك جلياً في كل أعماله ليكون بمثابة موجة ثورية على اليأس الذي أصاب الشعراء في الوطن العربي وتحديداً في فلسطين المحتلة عقب نكبة ١٩٤٨.

كان ذلك الطفل الذي رأى الموت بعينيه هو محمود درويش الشاعر الذي بعث بالأمل، وبثَّ التفاؤل، ولم يقنط، ولم يفزع، ولم يجزع حين تعرض للنفي خارج وطنه، وحين ألقى في

غياهب سجون الاحتلال للمرة الأولى في عام ١٩٦١. ظل كما هو
باحثًا عن الأمل وبعائًا له، وخرج ليكتب ديوانه الأول «أوراق
الزيتون»، وقال مخاطبًا العدو:

سجّل.. برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد

ولكنني.. إذا ما جعتُ

أكل لحمَ مغتصبي

حذارٍ.. حذارٍ.. من جوعي

ومن غضبي

المدهش أنه رغم روعة وبلاغة إحساس هذه القصيدة،
فإن محمود درويش كان يغضب بشدة حين يختزله البعض في
هذه القصيدة أو غيرها، خصوصًا أنه كان يعتبرها مجرد بداية
لشباب لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، رغم أن
هذا الديوان لم يكن ديوانه الأول، فأول ديوان مطبوع له كان
يحمل اسم «عصافير بلا أجنحة»، لكن درويش كان يرى أن هذا
الديوان لا يستحق الوقوف أمامه!

جرأة غير مسبوقه أن يتجاهل شاعر عمله الأول ويعترف
بضعفه، ويعتبره مجرد محاولات لم تنجح، بل إنه لا يذكر متى
بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر، ولا يذكر الحافز المباشر
لكتابة «القصيدة الأولى» في حياته الشعرية، لا يذكر سوى أنه
حاول في سن مبكرة كتابة قصيدة طويلة عن عودته إلى الوطن،
لكنه يقول عنها «أثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار»!

ولكنني تعرفت على شعر محمود درويش بالصدفة حين دخل أستاذ اللغة العربية إلى فصل أولى أول يبحث عن طالب يمثل المدرسة في مسابقة إلقاء الشعر على مستوى الإدارة التعليمية، فوقف ووقف زميل لي، لكنني لم أدرك معنى كلمة إلقاء التي قالها الأستاذ، لذلك انتظرتُ حتى انتهى زميلي من إلقاء قصيدة «النيل» التي كنا ندرسها في الشهادة الابتدائية، وفعلت نفس ما فعله زميلي وألقيت نفس القصيدة التي لم أكن أحفظ سواها!

فاختارني الأستاذ لأمثل المدرسة في المسابقة التي لم تفز بها المدرسة منذ ١١ عاماً، واختار لي الأستاذ قصيدة أخرى لألقيها في المسابقة، وكانت هذه القصيدة هي قصيدة «عن إنسان» لمحمود درويش، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه، وكانت كلمات القصيدة بالنسبة إلى تلميذ في أولى إعدادي تحتاج إلى شرح وتفسير، وقد أفاض الأستاذ في شرحها حتى صرت أحفظها عن ظهر قلب، بل إنني ما زلت أحفظ طريقة إلقاءي لها حتى الآن.

وفزتُ بالجائزة، وحصلت على شهادة تقدير، وشهادة استثمار قيمتها عشرة جنيهات، وتعلقُ بمحمود درويش، وصرْتُ أبحث عن كل أعماله، وقرأتُ أغلب أعماله قبل أن أحصل على الشهادة الإعدادية، وصارت ذائقتي الشعرية لا تحتمل أنصاف الشعراء! ولم يعد محمود درويش بالنسبة إليّ مجرد شاعر، بل صار هو الشعر ذاته لسنوات، رغم أنني كنت أقرأ جاهين والأبنودي

ونزار قباني وأمل دنقل، بل إن القراءة الوحيدة التي لا أبذل فيها أي جهد ولا يصيبنى فيها أي كلل أو ملل هي قراءة الشعر، فأني ديوان مهما كبر حجمه لا يمكن أن يستغرق مني أكثر من ليلة واحدة في قراءته، بل إن عددًا كبيرًا من دواوين الشعر التي أشتريها كنت أنتهي من قراءتها قبل أن أصل إلى البيت، والفضل الأول في كل هذا هو لمحمود درويش، لذلك كنت ألقى أشعاره في كل مناسبة، وأحيانًا كثيرة دون مناسبة! وكبرت، وكبر معي حبي له، فكان يكفيني أن أراه ولو من بعيد، كان يسعدني سماع صوته مباشرة دون حواجز، وحين جاءت اللحظة التي انتظرتها طويلا حين تم الإعلان عن حضوره أمسية شعرية في معرض الكتاب، ذهبْتُ مبكرًا، ولم أكن أنتظر سوى سماع صوته وهو يلقي شعره، وسمعتَه حتى انتهت الأمسية ولم أحاول الاقتراب منه، واكتفيت برؤيتي له، وعدت إلى البيت حاملًا بقية أعماله التي لم أكن قراءتها، ولم أتوقف حتى الآن عن قراءتها.

«٣»

لا أظن أن الشعر قد عرف شاعرًا أشعرَ منه! حين تقرأ كلمات قصائده تشعر أنه لم يكن أبدًا واحدًا من الذين يجلسون على مكاتبهم ويرتّبون دفاترهم لكتابة القصائد، فأنت تشعر دون أن تعرفه بأن قصائده وُلدت في ساحات المعارك، وداخل الزنازين، وعلى المقاهي في بلاد المنفى. فقد عاش طيلة حياته يؤمن بأن قدره أن يكتب قصائده فوق الدبابات، ولم يرضَ لنفسه يومًا أن يجلس - في أثناء المعارك-

مع الخائفين في الخنادق، لذلك ظل «محمودا» بين الناس، وله «دراويش» من المحيط إلى الخليج يرون أن بإمكان أشعاره أن تغير مجرى التاريخ.

قصائده سكنت القلوب، وتركت آثارها في العقول، وصارت كلماته عناوين رئيسية لمن أراد أن يدرك معاني الوطنية، فقد اختار أن يكون الحبر وقوداً للحرب، وأن يكون صوتاً للمقاومة، وسوطاً مسلطاً على أعدائها، وأن تكون قصائده بمثابة ثورة ضد كل قيد، فمنذ ميلاده الشعري قرر أن يكتب القصيدة المقاومة التي تقف شامخة في ساحات المعارك، وقد بدا ذلك واضحاً في كل قصائده، وتحديدًا في قصيدته «أيها المارؤون» التي زلزلت الأرض من تحت أقدام سفاحي تل أبيب، وجعلتهم يشعرون بأن القصيدة يمكن أن تكون كلماتها أكثر خطراً من الرصاص، وسنظل نردد أشعاره مع كل هجمة همجية من العدو الصهيوني على أرضنا ونقول:

أيها المارؤون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا

وَلْتَمُوتُوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا

فَلنَّا في أرضنا ما نعمل

ولنا الماضي هنا

ولنا صوت الحياة الأوَّل

ولنا الحاضر، والحاضر، والمستقبل

ولنا الدنيا هنا.. والآخرة

فاخرجوا من أرضنا

obeikandi.com

للڪبار فقط!

نحن الشعب الوحيد الذي يستخدم «المخ» في الساندويتشات!

جلال عامر

obeikandi.com

جنازات القرن العشرين

«١»

«كانت جنازتي كبيرة ومهولة!

وقد توقعت -قبل وفاتي- أن تكون جنازتي كبيرة ومهولة بفضل عدد الدائنين الذين سيمشون ورائي أملاً في معجزة تعيدني إلى الحياة حتى يستأنفوا مطالبتي بفلسهم!»
هكذا وصف العم جليل البندراي جنازته.

وأضاف: «الصحف اعتادت أن تصف الجنازات وصفاً واحداً حزيناً لا يتغير فلماذا لا أسعد الناس بوصف ضاحك للجنازة؟ هذا هو الجديد وأنا أحب الجديد.. الجنازة فيها إفيهات تفتّس م الضحك.. فليه دائماً نبص لها من زاوية الدموع؟ وما ذنب القارئ حتى أزعجه ع الصبح بكلام حزين ومقرف، أنا الذي تعودت أن أسليه كل صباح وأحاول أن أرسم ابتسامة على فمه، أليس من الأفضل أن أودع القارئ بابتسامة؟!».

ربما لا تكون سمعت عنه من قبل، وربما أيضاً سمعت عنه لكن لم تقرأ له، فكتبه لم تصل إلينا، ومقالاته التي كان يكتبها يومياً في الصفحة الثامنة بجريدة «الأخبار» لم يتم جمعها في كتاب حتى الآن، فقد كان أول من كتب «التويتة»، نسبة إلى «تويتر».

فأفكاره مرگزة، وأهدافه واضحة، وعباراته مكثفة، وكلماته قليلة، وجمله قصيرة لكن لسانه كان طويلاً، وطويلاً جداً!

لكنه رحل قبل قرابة نصف قرن بعد أن ملأ الدنيا ضجيجا،
وضحكا، وأفلاما، وأوصافا، وشتائم، لدرجة أن «تحية كاريوكا»
أطلقت عليه لقب «جيل الأوب». وإحنا بندارى عليه»، وحلفت
ذات مرة أن تضربه بالشبشب، وتعقبته في منزل إحدى الفنانات
وجلست تنتظر حضوره ودخل جليل فنطق بشتيمتين فاستغرقت
بعدهما تحية في الضحك!

«٢»

كانت الشتائم لازمة في لسانه، أو كانت أشبه بفاصلة أو
«سؤلة» بين عبارات كلامه العادي، وكان يُغضب الناس منه
بالشتائم ثم يعتذر إليهم بالشتائم أيضًا -على حد تعبير عمنا
أحمد رجب- الذي شهد وشاهد مئات الوقائع مع العم جليل،
ومنها حين أقسم فريد شوقي أنه سيرمي جليل من البلكونة
وسيُطبق ضلوعه، وذلك بعد أن كتب جليل أن هدى سلطان
تضرب وحش الشاشة بالأطباق، الأمر الذي يهز صورة وحش
الشاشة عند جمهور الترسو.

وذهب أحمد رجب مع جلال معوض ليحاولا تهدئة فريد
شوقي ولكنه أصر على ضرب جليل عند حضوره!
ولم يكن أمامهما إلا أن يسرعا إلى باب العمارة حتى ينصرفا
بجليل عند حضوره بعيدًا عن لكلمات وحش الشاشة، ولكن
جليل أصر على الصعود، ودخل على فريد شوقي الذي نظر
إليه والشرر يتطاير من عينيه وإذا بجليل ينطق بكلمة واحدة
ففس بعدها وحش الشاشة من الضحك!

ورفع الفنانون والفنانات ٨٠ قضية ضده انتهت جميعًا

بالصلح بعد أن اعتذر إليهم بشتائمهم!
فقد انتهى الفنانون والفنانات إلى حقيقة مؤكدة وهي أن
جيل البندارى هو صاحب أطول لسان وأطيب قلب!
ولعل أبرز دليل على طيبة قلبه هو أن الأغنية الأقرب إلى
قلبه كانت أغنية «ماما زمانها جاية»، لدرجة أنه طلب من
صديقه الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يعلمه عزف هذه
الأغنية على البيانو، وتعلمها بالفعل، وظل يعزفها كل يوم حتى
حجزت الضرائب على كل ما يملكه، وصادرت البيانو!
يومها كان يتحسس البيانو كما يتحسس طفل لعبة ستنتزع
منه.

«٣»

عما جليل البندارى كان كاتبًا وصحفيًا وناقدًا وسيناريستًا، وله
عدد كبير من الأفلام التي ما زلنا نشاهدها حتى الآن، ونضحك
معها وعليها منها: «العتبة الخضراء»، و«الآنسة حنفي»، و«بمبة
كشر»، و«موعد مع إبليس»، و«شفيفة القبطية»، وهو أول من
أطلق على عبد الحليم حافظ لقب «العنديل الأسمر»، وهو
أيضًا من أطلق على أغنية «أنت عمري» التي غنتها سيدة
الغناء أم كلثوم ولحنها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب
«لقاء السحاب».

فكلماته ما زالت حية بيننا نذكرها، وتذكرها، ونرددها لكن
دون أن نبحت أو نعرف صاحبها. ورغم قسوة التجاهل وعدم
الاعتراف بأصحاب الفضل والسبق فإن هذه هي قيمة المبدع
الذي تتجاوز أفكاره ورؤيته حدود الزمان والمكان وتظل عالقة

بالأذهان أبد الدهر.

فالمبدع يظل حياً ما دمنا نردد أفكاره وكلامه، فهذا يكفيه، فهو يدرك أن وجود أفكاره أهم كثيراً من وجود اسمه، لكن وجود اسمه مهمٌ لنا ولأجيال لا نريد لها أن تفقد الذاكرة، والذكرى.

لكن المدهش أن جليل البندارى قبل وفاته كان يهوى جلسات تحضير الأرواح، وذات مرة لجأ إلى محضر أرواح اسمه الحاج طلبة، ليقوم بتحضير الست شوق البولاقية التي هام بها نابليون بونابرت غراماً خلال وجوده في القاهرة أيام الحملة الفرنسية. كان جليل بصدد كتابة أوبريت غنائي يحكي غرام نابليون بفاتنة بولاقي، ورأى أن تحضير روحها سوف يمكنه من كتابة الأوبريت بتفاصيل تاريخية صحيحة.

ولأمر ما تغيب الوسيط فاختر الحاج طلبة وسيطاً آخر، وراح يجري طقوسه في الغرفة المعتمدة، وما لبث أن سرت مهمات غامضة قال بعدها الحاج طلبة: السلام عليكم، وردت روح شوق البولاقية السلام، وقدمت نفسها قائلة: أنا شوق بنت عديلة وكانوا يدللوني باسم شواشي، بينما كان نابليون يناديني «شير.. شو».

وقالت شوق البولاقية إنها تعرفت على نابليون في بيت مندور الكحاوي، وأنه أعجب بها إعجاباً شديداً. وروت شوق تفاصيل كثيرة عن غرام نابليون بها، لكنها صدمت صدمة فظيعة عندما اكتشفت أن نابليون كان يريد أن يستولى على مصاغها خصوصاً خلخالها الذهبي!

وكان جليل يكتب كل هذه التفاصيل، حتى اكتشف أن الوسيط الذي قال كل هذا الكلام هو عمنا أحمد رجب!

أحمد رجب كان أقرب الأحياء إلى قلب عمنا جليل البنداري، وهو أيضًا المصدر الأول، وربما الأوحيد في كل معلومة عن حياته الخاصة، لذلك تحدثت معه قبل أن أكتب عن العم جليل. كان الأستاذ أحمد يعتبر جليل البنداري والده، وكان يُقبَّل يده كلما رآه رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»!

obeikandi.com

ضحكات عفيفي الصارخة!

«١»

«عزيزي القارئ...»

يؤسفني أن أخطرك بشيء قد يحزنك بعض الشيء، وذلك بأنني قد توفيت، وأنا طبعاً لا أكتب هذه الكلمة بعد الوفاة (دى صعبة شوية) وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تُنشر بعد وفاي، وذلك لاعتقادي بأن الموت شيء خاص لا يستدعي إزعاج الآخرين بإرسال التلغرافات، والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالي العزاء.

وإذا أحزنتك هذه الكلمات، فلا مانع من أن تحزن بعض الشيء، ولكن أرجو أن لا تحزن كثيراً».

هكذا نعى الساخر الأعظم محمد عفيفي نفسه، وأصر أن تُنشر هذه الوصية بعد وفاته في جريدة «الأهرام»، ونُشرت بالفعل في ٥ ديسمبر عام ١٩٨١ بعد شهرين فقط من وصول حسني مبارك لكرسي السلطة خلفاً للرئيس السادات. لكن قبل ٦١ عاماً، وتحديداً في فبراير ١٩٢٢ كانت الحياة مختلفة.

وقتذاك عاد النبي من بريطانيا وحيّاه الكثيرون في طريقه إلى قصر الدوبارة، وذهب في نفس اليوم إلى الملك فؤاد وسلمه تصريح ٢٨ فبراير، وفيه إلغاء الحماية، وإعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة.

وأعلن الملك فؤاد أنه صار ملكًا بعد أن كان سلطانًا، وتولى عبد الخالق ثروت باشا الوزارة وجمع مع رئاسة الوزارة وزارتي الداخلية والخارجية. وتم إغلاق جريدة «الأهالي» وتعطيل جريدة «الأهرام» ثلاثة أيام، و«الأمة» ثلاثة أشهر، والتنبيه على الصحف عدم ذكر اسم سعد زغلول وزملائه في المنفى.

.. وأسس سيد درويش مسرحًا له في الإسكندرية، وكانت مسرحية «شهرزاد» أول مسرحية يتم عرضها عليه. .. ونجيب محفوظ كان في طريقه إلى المدرسة الابتدائية، وأحمد مظهر أتمَّ عامه الخامس.

.. وقبل عام واحد فقط من ميلاد أول دستور عرفته مصر في تاريخها، وقبل ست سنوات من ميلاد محمود السعدني وأحمد رجب.

وسط هذه الأجواء وُلد محمد عفيفي في يوم السبت ٢٥ من فبراير عام ١٩٢٢ في قرية «الزوامل» بمحافظة الشرقية. نشأ في أجواء القرية المصرية، وتدرج في صفوف التعليم حتى حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٤٣، ثم حصل على دبلوم الصحافة عام ١٩٤٥.

وبعد خمس سنوات وتحديدا في مطلع عام ١٩٥٠ عثر على شريكة حياته السيدة اعتدال الصافي، وأنجب منها ثلاثة أبناء «عادل ونبيل وعلاء» طبيب ومهندس ومحام، لكنه يقول عن الزواج: «سيظل الناس يتزوجون إلى الأبد ما دام هناك مَنْ يظن أنه أفضل حظًا من الآخرين».

وبعد شهور قليلة من زواجه الذي اختار له نفس تاريخ ميلاده، عمل محررًا في «أخبار اليوم»، وكان مسؤولًا عن باب بعنوان «هذا وذاك»، وظل كذلك حتى ٣١ مارس ١٩٦٤، وفي

ذات العام انتقل إلى مجلة «آخر ساعة» وحرّر فيها بابًا بعنوان «ابتسم من فضلك»، ثم غادر «أخبار اليوم» بعد قرار تأميم الصحافة، ورحل إلى «دار الهلال» مع صديقه أحمد بهاء الدين وظل يكتب في مجلة «المصور» لعشر سنوات، وبعدها عاد إلى «الأخبار».

«٢»

محمد عفيفي هو صورة لجيل بأكمله نبغ في كل شيء، ولم يسع لشيء، فهو صحفي، وساخر، وروائي، وكاتب مسرحي، وله ثلاثة عشر كتابًا لن تجد أغلبها في المكتبات رغم أهميتها وقيمتها الأدبية والفكرية وروعة أسلوبها لكن أجمل ما في كتبه أنك حين تقرأها لا تتصور أن من كتبها رحل منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا فيقول: أحيانا أميل إلى قراءة كتب الخرافات.. بالأمس عكفت على قراءة «ميثاق حقوق الإنسان»!

لم تشغله الحياة بقدر ما شغلها هو بفته وإبداعه وقدرته على التكثيف والتبسيط والتوصيف والتشخيص لكل ما فيها ومن فيها، فلم يكتب من أجل أن يحصد المجد أو الشهرة والمال، ولو أراد لحقق كل شيء، لكنه لم تشغله الأضواء ولم ينشغل بها، فهو واحد من هؤلاء المتواضعين العظام الذين لا يشعرون بأن ما يفعلونه يستحق الثناء والاحتراف والتمجيد والتلهيل، هو يظن أنه يفعل ما عليه فقط، يكتب ما يعتقد أنه ويجعلك تضحك على طريقته، لذا يوضح الفرق بين المهرج والساخر قائلاً: «المهرج يجعلك تضحك عليه، والساخر يجعلك تضحك عليك».

هذه هي مدرسته في السخرية فهو بلا عُقد، ولا يريد التصنع أو ادعاء العلم رغم كونه عليمًا، ولم يدع بطولة رغم أنه بطلا حقيقياً، كان يفعل كل شيء ببساطة وتلقائية وخفة ظل، لكنها بساطة عميقة، وتلقائية منتقاة، فلا يخاطب القارئ من أعلى برج عاجي، لكنه يخاطبه من الكرسي المجاور له على المقهى فيقول له: الفرق بين اللص الصغير واللس الكبير، أن الأول يتسلق الماسورة، أما الثاني فيتسلق الموجة!

ظل محمد عفيفي بعيداً عن السياسة وتقلباتها، وظلت كتاباته مرتبطة بنبض البسطاء، الذين كان يكتب من أجلهم، ويرصد معاناتهم، ويعبر عنهم في كلمات قليلة لكنها كافية، لكنه لم ينافق القارئ بل كان عينه وقلمه، لذلك حين تفتت ظاهرة «الإفتاء السياسي» قال: «بعض المصريين يفهمون في الطب، وبعضهم يفهم في الهندسة، وبعضهم في الأدب والفلسفة، وبعضهم لا يفهم في أي شيء، ولكنهم جميعاً يفهمون في السياسة!» لم يغيّر سيارته الفورد النبتي موديل ١٩٥١ الكالحة لمدة ثلاثين عاماً، كان يترك بابها مفتوحاً لعل أحد لصو السيارات يرقّ لحالها فيضع فيها صدقة جارية -على حد تعبير الرائعة سناء البيسي التي ظلت بصحبته داخل حجرة واحدة لعشر سنوات كاملة في مبنى «أخبار اليوم»- ربما لذلك كان يسأل صاحب السيارة الفارهة: «يا أيها الذاهب إلى صلاة الجمعة بالسيارة المرسيديس أتريد الآخرة أيضاً؟!».

ووضع محمد عفيفي تعريفا للمواطن المصري قال فيه: «إنه المواطن الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يموت في حادث تصادم بين مرسيديس وكارو!»

ويضيف: «نعم، تستطيع السيارة الخربة أن تستمر في السير..

إذا وضعتها أعلى طريق منحدر!»
أعتقد أن هذه العبارة تحمل التفسير الوحيد لما نحن فيه
الآن.

«٣»

عيفي عاش زاهدًا، وعازفًا عن الحياة الصاخبة رغم أنه
واحد من مؤسسي شلة الحرافيش، ومن أقرب أصدقاء نجيب
محفوظ، وقد كتب عن محفوظ مقالا شهيرًا بعنوان «رجل
الساعة» وتحدث فيه عن عبقرية الرجل الذي يفعل كل شيء
بدقة حتى إنك يمكن أن تضبط ساعتك على مواعيده، فسيجارته
على رأس كل ساعة، وجلوسه على المقهى بحساب، وسهرته مع
الحرافيش بميعاد، وهكذا كل شيء في حياة نجيب محفوظ.
وحين اقترب الأجل، واشتد المرض، ودنا ملك الموت من
عيفي لم ياتمّن أحدًا على روايته الأخيرة إلا نجيب محفوظ،
فترك له مسودة العمل بلا عنوان، فاختر لها أديب «نوبل»
اسم «ترانيم في ظل تمارا»، ونُشرت بعد رحيله.
أعمال عيفي تنوعت، إذ بدأها بمجموعة قصصية سماها
«أنوار»، ثم تبعها بمسرحية «التفاحة والجمجمة»، وبعدها كتب
روايته الأولى «بنت اسمها مرمر»، ثم اتجه إلى أدب الرحلات
بـ«تائه في لندن» و«فانتازيا فرعونية» و«سكة سفر»، وبينها أرخ
لجلسات الحرافيش بروايته «شلة الحرافيش»، لكن يبقى أشهر
أعماله هي كتبه الساخرة ومنها: «ابتسم من فضلك»، و«ابتسم
للدنيا»، و«ضحكات عابسة»، و«ضحكات صارخة»، و«للكبار
فقط».

والحقيقة أنه بالفعل للكبار فقط، فرغم سلاسة أسلوبه وروعة لغته وبساطة كلماته ودقة تعبيراته فإنه اختار أن يكون واحدًا من هؤلاء الكتاب الذين يجب أن تبذل جهدًا من أجل أن تصل إلى أعمالهم، فلا يمكن أن تجد كتبه ملقاة على الأرض أمامك على قارعة الطريق، ومن الصعب أن تعثر عليها في المكتبات، وربما الحل الوحيد لهذه المعضلة أن تتم طباعة أعماله الكاملة، لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب تنفيذ ما طالب به مرارًا أستاذنا أحمد رجب وهو إطلاق اسم محمد عفيفي على أحد ميادين مصر، فلا يجوز أن لا تعرف الأجيال القادمة والحالية قيمة كبيرة وقامة عالية مثل محمد عفيفي الذي لقبه عمنا محمود السعدني بالساهر الأعظم.

عفيفي حالة متفردة يجب أن تبحث عنها وتسعى لها لتقطف ثمرتها، لتشعر بنشوة القراءة له، وتدرک مقصده حين يقول: في حديقة الحيوان أشعر بأمان أكبر بكثير من ذلك الذي أشعر به في الشارع، فحيوانات الحديقة كما تعلم محبوسة!